الأهرام
مركز الأهرام للتنظيم وتكنولوجيا المعلومات
المصدر: الاهرام العربى
التاريخ: ٢٠٠٠/١٠/٧

إقبال ماضى تروى تفاصيل سنوات الحزن.. والحرب

رأيته رئيساً لأول مرة بعد 6 سنوات!

مات جمال عبد الناصر.. وارتدى العرب ثوب الحداد.. فى كل بيت عربى كان هناك جرح غائر وفى بيت «إقبال ماضى» كانت جراح بناتها لم تندمل بعد.. فخلف الأبواب المغلقة دارت خلافات ومشاكل أحالت حياة بنات السادات إلى ما يشبه الجحيم.. وفى اللحظة التى اعتقدت فيها الأم أن بمقدورها «لملمة» أحزان بناتها، أومضت فى الأفق لحظة سعادة وانتصار.. فقد تحقق حلم لم يداعب خيال أنور السادات من قبل، حتى حينما كان يناضل ضد الاحتلال الإنجليزى، أو يعمل فى «غرفة عمليات الثورة» كأحد الضباط الأحرار البارزين وعضو مجلس القيادة!

بكت الجماهير زعيمها عبد الناصر ثم توجهت بعد أيام قليلة إلى صناديق الاستفتاء على تولى أنور السادات رئاسة الجمهورية.. وبين الجموع «انحشرت» إقبال وبناتها للإدلاء بأصواتهن، ورغم أن أحداً من المواطنين أو مسئولى اللجان لم يكن يعرفها، إلا أن «إقبال» كانت تمشى بفخر وشموخ.. فهى زوجة الرئيس السابقة لم تشعر بأن كلمة «السابقة» تؤلمها.. فمازال فى القلب حب كبير.. ربما أكبر من ورقة «الطلاق» التى تاهت بين أوراق حياتها الحزينة.وفى غمرة النشوة بالإنجاز الذى لم يحلم به أحد..

نسيت «إقبال ماضى» وبناتها أن ثمة ضريبة جديدة يجب دفعها فالأب الذى كان ينساهن أحيانا وهو رئيس لمجلس الامة ثم نائب للرئيس، أصبح يحمل فوق كتفيه أمة عربية مهزومة.. جريحة ويائسة.. لذا كان طبيعياً أن يتحول النسيان المنقطع إلى «هجر» دائم ولقاءات نادرة يقضيها الرئيس شارد الذهن.. لتنفجر بداخل بناته براكين الغضب الصامت والتى تزامنت مع انفجارات أخرى عاشها الجميع فى سنوات الحرب.. والسلام!

■ سجل الذكريات ـ أحمد فرغلى ■ تصوير ـ موسى محمود

تبدو مساحات الانتصار فى حياة «إقبال ماضى» مع زوجها ثم طليقها أنور السادات شديدة الخفوت، ولكن حالة السلام الداخلى لدى هذه السيدة منحت تلك المساحات الفرصة كى تتسع تدريجياً لتطغى على أحزان وانكسارات أى امرأة «مطلقة».. هى ترى ذلك طبيعياً، ربما لأن ورقة «طلاقها» لم تنتزع حبها الجارف له.. وربما لأن وطنيته وشجاعته وتضحياته من أجل مصر زرعت فى داخلها حباً من نوع مختلف ومتفرد.. فهل أحبت «إقبال ماضى» أنور الزعيم؟!.. أو بمعنى آخر.. هل كانت مفتونة به وهو يشق طريقه نحو القمة؟!.. يبدو هذا الافتتان أقرب إلى الواقع، لاسيما أنها حين تتحدث عنه تحلو لها دائماً العودة إلى سنوات النضال والكفاح الأولى.. ثم القفز بشكل لا إرادى إلى فترة الزعامة والرئاسة!

فى يوم توليه الرئاسة انهمرت دموعى ووزعت الشربات ونصبت موائد الطعام استشهد عاطف السادات ذبحنا جميعاً وأصاب شقيقته بالشلل

من مساحات الافتتان ذاتها تدلف «إقبال» إلى مرحلة جديدة من التفاعلات: كانت الأحداث الحزينة فى بيوت بناتى تشغلنى عن متابعة ما يحدث فى بيت السادات طوال فترة توليه منصب نائب الرئيس.. ولكننى كنت أشعر بأنه فى الطريق إلى الزعامة.. لذا حاولت تحمل كل المشاكل بعيداً عنه.. كنت لا أشكو له ما أعانيه أنا والبنات حتى لا أزعجه، وكنت أقول لنفسى «يكفيه ما هو فيه»، لاسيما أن الحالة العامة فى البلاد كانت سيئة للغاية، الإحباط واليأس سيطرا على الشارع المصرى والسخط يملأ النفوس رغم اشتعال حرب الاستنزاف على الجبهة.. ومضت شهور ما بعد نكسة 67 ثقيلة مثل الجبال.. كانت الأحزان تحاصرنى.. إخفاقات فى بيوت بناتى، وانكسارات تعيشها الثورة، واكتملت الصورة الحزينة

بالنبأ الذى أبكى الجميع إلى حد الانهيار.. لقد مات جمال عبد الناصر، وارتدينا جميعاً ثوب الحزن وذرفنا الدموع رغم علمنا بأن الرئيس القادم هو أنور السادات.

قضينا الأيام التالية فى قلق على السادات الذى كان يخوض صراعات صامتة مع بعض رجال الثورة.. وبعد أيام قليلة كنا نقف أمام صناديق الانتخابات للمرة الأولى فى حياتنا.. منحنا أصواتنا للأب والحبيب والزوج السابق، ورغم أننا كنا نعلم أن الاستفتاء مجرد إجراء «شكلى» إلا أننا عدنا إلى المنزل نصلى وندعو لأنور بالتوفيق فى هذه المرحلة شديدة الحساسية، وبعد ثلاثة أيام كان السادات يؤدى القسم كرئيس للجمهورية، وتسلم المنصب رسمياً فى يوم 17 أكتوبر 1970، وأصبح الرجل الأول فى مصر.

فى هذه اللحظة.. منحت دموعى الفرصة كى تنهمر.. لم أعرف يومها ما إذا كانت دموع الفرح أم الحزن والأسى.. فقد عدت بالذاكرة إلى أيام الشباب، وتذكرت فترة خطوبتنا وسنوات زواجنا الأولى، لم يكن السادات يحلم بأن يصبح يوماً رئيساً أو زعيماً، كان حلمه الوحيد تطهير أرض مصر من المستعمرين الذين كان يطلق عليهم دائماً كلمة «الأنجاس»، كان يعشق النضال والكفاح، لذا كان منطقياً أن يعشق غاندى وعزيز المصرى وأحمد عرابى وسعد زغلول، ومازلت أذكر ما حدث فى إحدى جلساته هو ووالده مع أشقائى قبل أن يبدأ رحلة النضال، فقد قال لهم بحماسة شديدة «بكره هو ريكم هعمل إيه فى الإنجليز والسلطة الفاسدة» فنظروا إليه جميعاً باستخفاف.

وفاة الزعيم

يومها لم يتوقع هو نفسه أن فى مقدوره تحقيق أهداف النيل. لذا فعندما تولى الرئاسة كنت فخورة به وبالسنوات التى قضيتها معه، وحين شاهدته على شاشة التليفزيون فى خطابه الأول قلت له بكلمات مسموعة «أنا فخورة بك يا أنور.. وبناتك سعيدات.. ربما أنستهن هذه اللحظة تعاسة حياتهن الخاصة».. وبدون تفكير أو تخطيط وجدتنى أنصب موائد الطعام وأوزع «الشربات» على الجيران احتفالاً بتولى أنور الرئاسة.

وتغادر إقبال ماضى منطقة الأفراح والاحتفالات إلى مساحة جديدة من حياتها مع «الرئيس» بقولها: انهمك أنور فى عمله الجديد.. ولأننى أعرفه جيداً فقد توقعت أن يغرق فى مسئولياته ومهامه الجسيمة، وأن ينسى بناته رغم حبه لهن، ولكنه كان وفياً كعادته، فبعد شهر واحد من توليه المنصب، جاءنى أحد أفراد مكتبه وسلمنى مظروفاً فاخراً يحمل شعار مكتب رئيس الجمهورية، وجدت فى داخله مائة جنيه، فاعتقدت أن المبلغ هدية بمناسبة الرئاسة، ولكن المظروف ظل يأتى مع نفس الشخص كل شهر، فأيقنت أن أنور قرر زيادة مصروفى الشهرى من 30 إلى 100 جنيه، والأكثر من ذلك أنه أمر بناته الثلاث بعدم مطالبتى بأى نقود، وخصص لكل واحدة منهن مبلغاً شهرياً.

ولكن هذا الوفاء لم يكن كافياً بالنسبة للبنات.. فقد أصبحت ظروف العمل لا تسمح لأنور بزيارتنا، وهو ما ترك حزناً دفيناً فى قلوب البنات، وعندما كانت إحداهن تبدى ذلك أمامى كنت أقول «إن والدكن لم يغلق أبواب بيته فى وجوهكن.. فلماذا لا تذهبن إليه سواء فى منزله أم مكتبه».. ولكن هذه الكلمات لم تكن مقنعة للبنات، فقد كان لديهن إحساس بأن أنور لا يهتم بهن مثل باقى أفراد عائلته، وهو ما دفع ابنتى «راوية» إلى معاتبته بصراحة وفى جرأة.. وسألته لماذا لا يسأل عنها وعن شقيقتيها بينما حضر حفل زفاف ابن إحسان عبد القدوس فى «عز» الصراع مع إسرائيل.

«عرفات» دعوت له بالعبور وأشهدت الله أننى سامحته

محمود عثمان رفض سيارة هدية من الرئيس لابنته «جيهان»

ربما كان ذلك الإحساس هو الدافع الأول وراء التحول الذى طرأ

على «تركيبة» البنات.. إذ أصبحن أكثر اعتماداً على أنفسهن - هكذا تضيف إقبال - ولم تعد إحداهن تشعر بأن والدها هو رئيس الجمهورية الذى تشمل رعايته الجميع، لذا جاءتنى «راوية» ذات يوم، وأخبرتنى برغبتها فى العمل، وعندما رفضت ذهبت إلى والدها وأخذت منه الإذن، وتسلمت عملها فى إحدى شركات الأدوية براتب لا يصل إلى 40 جنيهاً شهرياً، وظلت تعمل فى هذه الشركة لأكثر من 10 سنوات، ولأنها تمتلك شخصية صلبة وإرادة قوية فقد تحملت التعليقات السخيفة من زملائها وزميلاتها.. فقد كانوا جميعاً يتهامسون بسؤال واحد: كيف تكافح ابنة رئيس الجمهورية من أجل راتب ضئيل؟!.

ترك غياب الأب فراغاً كبيراً فى حياة البنات.. ففى الماضى كان يلتقى بهن ويتحدث معهن كثيراً، ولكنه الآن غائب دائماً، لذا ففى أغسطس 1973 سنحت فرصة ذهبية للبنات، حيث ذهب والدهن لقضاء عدة أيام فى قرية ميت أبو الكوم، وما أن علمت راوية وكاميليا بذلك حتى أسرعتا إلى هناك، واقتحمتا بجرأة غريبة خلوة أنور الذى كان يفضل الجلوس فى حديقة المنزل وأمامه الأفق واسعاً عبر الحقول، ورغم همومه فقد قضى معهما وقتاً ممتعاً، حيث عاد بذاكرته إلى الوراء، وروى لهما سنوات الطفولة، وكيف كان ينام فى الشتاء على «قبة الفرن» البلدى، ثم يستيقظ مبكراً فيأخذ قطعة الجبن المفروكة مع الخبز الفلاحى ويحمل حقيبته القماش التى صنعتها له جدته وبها اللوح الخشبى الذى يكتب عليه ويذهب إلى المدرسة.

وبينما كانوا جالسين فى الحديقة، كان الرئيس يشرب كوب الشاى المفضل لديه والذى يعد على «الراكية» حين أخبرته إحدى البنات بأن أحد أبناء شقيقه تشاجر مع أحد الضباط وظلمه وشرده من عمله وبيته.. وعلى الفور استدعى السادات سكرتيره الخاص وأمره بإعادة الضابط وضمان عدم التعرض له، وظل الرئيس غاضباً بسبب ممارسات بعض أقربائه واستغلالهم لاسمه.

وتكمل «راوية» تفاصيل الجلسة النادرة فى ميت أبو الكوم بقولها: انتهينا من تناول الشاى.. ودعانا والدنا إلى مشاهدة أحد الأفلام معه.. وكان الفيلم يدور حول أحد اللصوص فى السجن، وبينما كنا نتابع الأحداث فوجئنا بالرئيس ينفجر ضحكاً، فاندهشنا وسألنا عما يضحكه.. فروى لنا

قصة طريفة حدثت معه وهو فى أحد السجون السياسية قائلا«كنت مسجوناً ذات مرة فى أحد السجون المقابلة لسجن النساء.. وكانت هناك سجينة شهيرة اسمها شربات كان كل المساجين يعرفونها.. ويهيمون بها عشقاً، فقد كانت جميلة وجذابة، حتى إن معظم المساجين الرجال كانوا يتوددون ويتحدثون معها عبر الأسلاك الشائكة، ولكنها لم تلتفت إلى أحد سواى، فرغم أننى لم أكن أهتم بها، إلا أنها أبدت إعجابها وتعلقها بى لاسيما بعد أن أخبرها بعض المساجين الخبثاء أننى حرامى خزن، مما دفعها إلى محاولة جذب نظرى إليها متوهمة أننى ثرى من سرقة الخزن العامرة بالأموال. وظلت تبذل محاولاتها معى حتى خرجت من السجن دون أن تكتشف الكذبة».

مأساة «عاطف»

هكذا.. كان السادات مع بناته.. مزيجا من الدفء والحنان والفتور والجفاء فى آن واحد.. كان ساحراً فى كل الحالات.. ولكنه تحول إلى شخص آخر قبل حرب 73 لا يتكلم كثيراً ولا يضحك إلا نادراً وتصف إقبال ماضى هذه الفترة العصيبة فتقول: كنت أعرف أنه يحمل هماً كبيراً، فالحرب تأخرت وضغوط الناس فى الشارع تتزايد، ورغم ذلك فلم يتأخر عن الوفاء بطلبات البنات، ولأنه دائم الانشغال فقد أوكل هذه المهمة إلى الضابط فوزى عبد الحافظ مدير مكتبه الخاص الذى كان يتولى جميع أمور أبنائه سواء منى أم من جيهان.

فى هذه الفترة سافرت إلى الأراضى المقدسة لأداء فريضة الحج، ولأننى لم أكن على اتصال به فى ذلك الوقت، فقد علم بالأمر من البنات، فأرسل مندوباً من الرئاسة إلى المطار وفتحوا لى صالة كبار الزوار، وفى الحرم المكى نسيت أن أدعو لنفسى وأنا فى غمرة الدعاء لأنور أن يتحقق له النصر، وهناك بكيت وسامحته على كل شىء، ووقفت على عرفات وأشهدت الله على ذلك وأنا ألهج بالدعاء له بأن يعبر بالأمة هذا المأزق التاريخى الصعب.

ويبدو أن السماء كانت مفتوحة.. فلم تمر سوى عدة أشهر حتى حانت لحظة العبور، وكدت أفقد الوعى من شدة الفرح وأنا أسمع صوت المذيع معلناً انتصار قواتنا المسلحة، وتبادلت مع بناتى الأحضان والقبلات

ولم نذق النوم طوال الأيام الأولى من الحرب، وبينما كنا نشعر إننا نحارب فى الجبهة مع أبنائنا بدا لنا فى اليوم الرابع أن الفرحة تأبى أن تكتمل فى بيتنا، فقد اختفت أخبار الطيار عاطف السادات شقيق أنور، ذلك الشاب «الشهم» الذى كان بلسماً لجميع أفراد الأسرة، وبكينا ونحن نتابع الشائعات التى انتشرت فى كل مكان.. البعض يقول إنه وقع فى الأسر، وآخرون أكدوا أنه مفقود أو سقط بطائرته فى مخيمات البدو وعجز عن العودة إلى مواقع الجيش المصرى.

وعلمنا أن زملاءه أخبروا الرئيس أنه قاد سرب الطائرات الأول الذى مهد الطريق للعبور، وأنه نجح فى تدمير قيادة الجيش الإسرائيلى فى سيناء، وفى طريق العودة تحدث معهم عبر اللاسلكى وفجأة انقطع الاتصال بعد أن أخبر عاطف أحد زملائه بأنه أصيب فى قدمه وبينما كنا جالسين فى انتظار أى أخبار عنه، فوجئنا بابنتى «راوية» التى كانت شديدة الارتباط به تشهق وتضرب صدرها وتنهار بكاء، فقد شرد ذهنها واسترجعت بيان القوات المسلحة فى اليوم الأول من الحرب، والذى أعلنت فيه قيادة الجيش أن مصر خسرت طائرة واحدة.. وتساءلنا جميعاً بصوت متهدج ومجروح «هل فعلها عاطف وحمل فى طائرته شحنات متفجرة ليفرغها فى تل أبيب كما طلب من شقيقه الرئيس؟!.

صدق حدس «راوية» ومات عاطف السادات شهيداً وبكاه الجميع دماً وليس دموعاً وأصيبت شقيقته زينب السادات بشلل عصبى من فرط الحزن والألم، وتحولت ميت أبو الكوم إلى سرادق كبير يخيم عليه الحزن، ومع ذلك فقد حدثت بعض المشاحنات فى العزاء، حيث ظهر الخطيب السابق لـ«لبنى» ابنة السادات من جيهان فصدرت التعليمات بإبعاده عن سرادق العزاء! ورغم أنه جاء حباً فى الشهيد عاطف، إلا أن جموع المعزين شاهدوا الضابط عبده الدمرداش - من كبار ضباط الحرس الجمهورى - يطلب منه بنفسه الابتعاد عن السرادق، ويصحبه إلى طريق العودة دون أن يقدم العزاء.

وصية «راوية»

وضعت الحرب أوزارها.. وازداد السادات قوة وثباتاً ورغم التفاف الجميع حول القيادة فى فترة الحرب وما بعدها إلا أن «إقبال ماضى» ظلت بعيدة عن زوجها السابق، لدرجة أنها لم تلتق به حتى عام

76، والمثير أن اللقاء لم يكن اختيارياً، تروى «إقبال» ذلك قائلة: فى هذا العام أصيبت «راوية» فى حادث سيارة، وكانت حالتها خطيرة للغاية حيث أجريت لها عملية جراحية دقيقة، وبعد أن أفاقت من التخدير طلبت رؤية والدها، وظننا جميعا أنها ستموت، وكان الرئيس وقتها فى زيارة طويلة للجيش الثالث بالإسماعيلية، وعندما أخبروه عاد مسرعاً بطائرته إلى منزله فى الجيزة ثم استقل سيارة بدون حراسة، واصطحب معه حسن مرعى وابنيه جمال ونهى، وحضر إلى «راوية» وقبلها بحنان واضح، وتحدثت إليه بصعوبة بالغة وقالت «بابا وصيتى الوحيدة هى ماما واولادى.. لو واحد منهم تعب واتبهدل من بعدى مش هاسامحك»، فصمت السادات قليلاً وبدا متأثراً للغاية ثم داعبها قائلا «هوه عزرائيل هيقرب من الأشكال العفشة اللى زيك» فانفجر الحضور بالضحك، ثم طلب من «سعاد الشغالة» كوب شاى بالطريقة الفلاحى، وظل يتحدث معنا لمدة ساعة كاملة، وكانت تبدو عليه علامات الشموخ والتألق والنصر.

يومها داعبته وقلت له «أنا شريكة لك فى نصر أكتوبر من ناحيتين. الأولى وقوفى إلى جوارك كزوجة فى سنوات المحن.. والثانية دعائى لك على «عرفات».. وبأخلاقه الكريمة قال لى «أنت صاحبة النصر كله».. ثم انصرف بعد أن وعد «راوية» بمفاجأة بعد شفائها.. وكانت المفاجأة هى تخصيص 6 سيارات «فولكس» بمعدل سيارة لكل واحدة من بناته، ولكن محمود عثمان زوج «جيهان الشهيرة بـ نانا» اعتذر للرئيس بأدب شديد عن قبول السيارة، واشترى لزوجته سيارة أخرى من ماله الخاص.

ورم فى المخ

تذهب السيدة «إقبال» إلى موقف أخر تبدت فيه شهامة ووفاء السادات: أصبت بصداع مزمن عانيت منه كثيراً وكنت أبكى من شدة الألم مثل الأطفال، فذهبت إلى الدكتور طلعت عبد الحميد الذى كانت تربطنا به علاقة صداقة فطلب إجراء أشعة عاجلة على المخ، وبعد الأشعة قال إنه يشتبه فى وجود ورم فى المخ، لذلك أجرى لى فحوصات عديدة ثم قرر سفرى إلى فرنسا، وقتها لم نكن نملك - أنا وبناتى - نفقات السفر والعلاج، ولكننى فوجئت بأن البنات أخبرن والدهن بالأمر، فلم تمض 48 ساعة إلا وكان قرار

علاجى فى يد ابنتى «كاميليا» وكان يتضمن مبلغ 28 ألف فرنك أجر الطبيب فقط بخلاف الإقامة والعلاج والفحوصات والمستشفى.

وسافرت إلى باريس.. وهناك خضعت لفحوصات دقيقة على أيدى تسعة أطباء كبار، أكدوا جميعاً أننى مصابة بورم فى المخ، وقرروا إجراء عملية جراحية عاجلة، وفى آخر لحظة قرر الطبيب المشرف على العلاج إجراء اختبار معين على المخ، وعندما ظهرت النتيجة فوجئنا به يجرى فى طرقات المستشفى وهو يصرخ قائلاً «مفيش ورم.. مفيش ورم» واتضح من الاختبار أن هناك تجويفاً فى خلايا المخ نتيجة لـ«فطم» ابنتى الصغرى بطريقة خاطئة، وقد خضعت لعلاج على مدى 3 أسابيع، كان يرافقنى خلالها الدكتور طلعت عبد الحميد، وقبل عودتنا فوجئت بالرئيس يرسل لنا مبلغاً كبيراً من المال مع أشرف مروان الذى كان فى زيارة إلى باريس.

وعندما عدت إلى القاهرة شكرته، وقررت السفر إلى السعودية لتأدية العمرة، وأخذت معى أشرف حفيدى، وعندما علم الرئيس من ابنتى «رقية» أصدر تعليماته بأن يرافقنا مندوب من الرئاسة، وأرسل لى ألف دولار.. وأديت العمرة ورجعت إلى مصر التى كانت تستعد لاستقبال «قنبلة» السادات الجديدة.. وانقلبت الدنيا وهى تنصت إليه وهو يخطب فى مجلس الشعب معلناً استعداده للذهاب إلى تل أبيب.. وبدأ فصل جديد فى حياة «إقبال» والسادات.. ومصر كلها..! ■

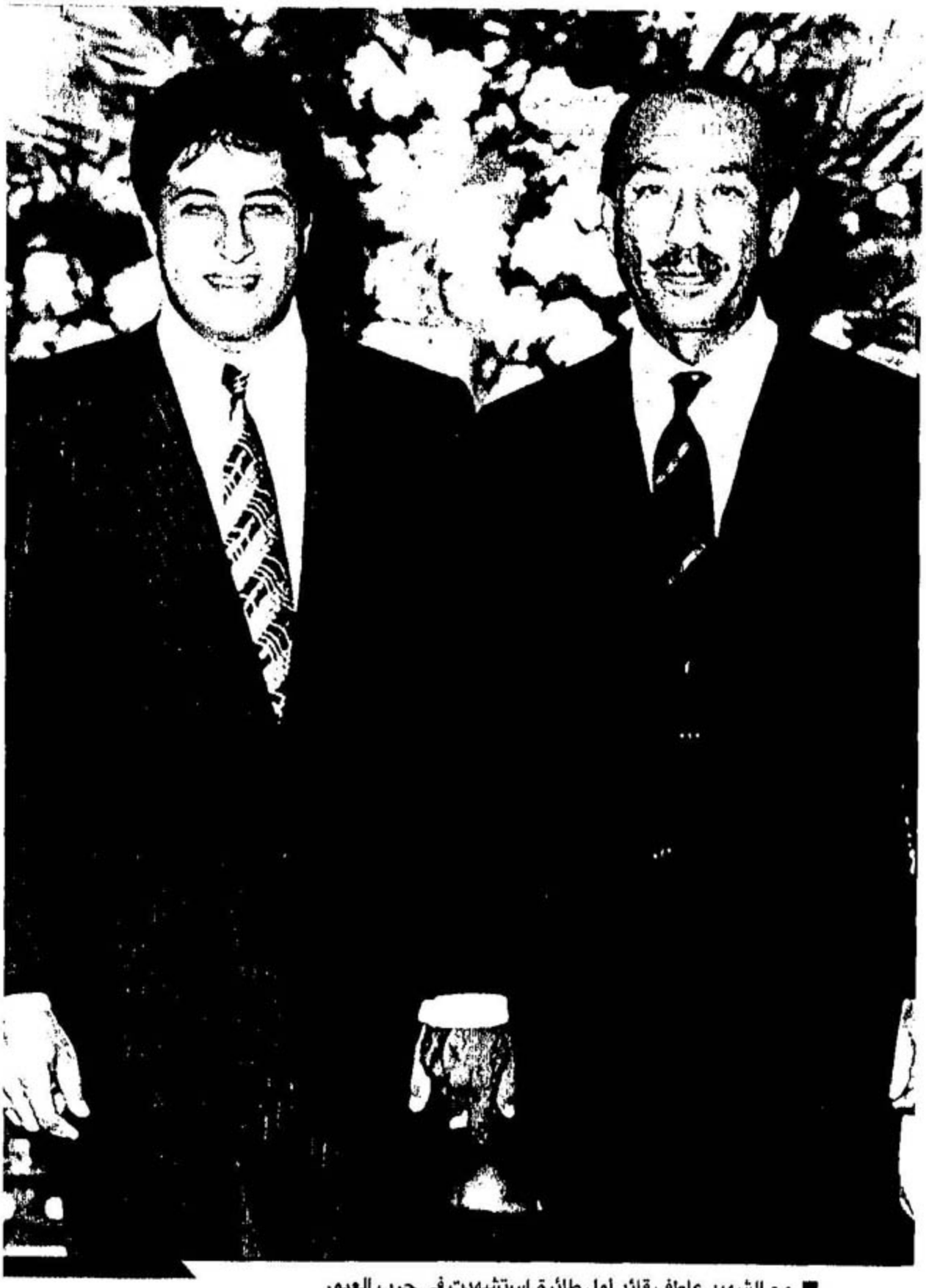

■ مع الشهيد عاطف قائد أول طائرة استشهدت فى حرب العبور

■ فى أحد المصايف أيام الزواج الأولى

■ مبتسماً بين زوجته جيهان وإحدى بناته من زوجته الأولى

■ فى مصيف ابوقير إقبال تبدو متفائلة وعلى ثغرها ابتسامة صافية وهى تحمل القلة وترتدى جلباب ست البرين والدة الرئيس السادات، هذا الجلباب الفلاحى مازالت تحتفظ به إقبال إلى الآن، وتقول إنه من رائحة الغالية، إنها صورة نادرة - إلتقطت لها عام 1955 - تؤكد وفاء هذه السيدة وإخلاصها فضلاً عن البراءة التى تؤكدها ملامح الصورة

■ مع شقيقها الحاج سالم ماضى الذى زوجها إلى السادات

■ كاميليا السادات ونيلسون مانديلا

■ مع كريمة مختار فى مصيف بلطيم

■ إقبال ماضى مع السيدة رحمة زوجة المرحوم
د. صبرى زكى وزير الصحة الأسبق